ندوة الحفاظ على التراث المعمارى الخليجى المتميز

الدوحـــة – دولـة قطـر

1–3 أكتوبر 1994

الربــط بيــن الأصـــالة والمعـــاصرة وإستـــمرارية التـراث

للدكتور عبد الباقي إبراهيم

لا يزال موضوع الحفاظ على التراث المعمارى يسير فى ثلاث إتجاهات:

الأول: فى الحفاظ عليه واستثماره أو تقليده نصا فى الشكل وتجديدا فى المواد وطرق الإنشاء.

والثانى: فى إختزال مفرداته وتوظيفها فى صيغ جديدة تبعا لمرئيات المعمارى أو رؤيته الشخصية

والثالث: فى ربط التراث بالمعاصرة تدعيما لإستمراريته وتواصله مع حركة الحياة وإتساع دائرة الاتصالات الحضارية بين الشعوب الأمر الذى أدى إلى إنفراط العقد الحضارى فى العمارة العربية المعاصرة. وأصبحت المدينة العربية مسرحا للتجارب المعمارية. وهذا ما يدعو إلى ضرورة البحث عن صيغة جديدة يتفاعل فيها الإنسان العربى والمسلم بالعمران الذى يقيمه وفى بعد المكان الذى يضمه وفى بعد الزمان الذى يحتويه.

إن ربط العمارة بالمجتمع يساعد على إيجاد الصيغة الحضارية للعمارة والتى ترتبط فيها الأصالة بالمعاصرة. وهنا يجدر البحث عن منظور جديد يسعى إلى جعل العمارة من الخارج عاكسة للمنظور الحضارى للمجتمع ومن الداخل عاكسة للمنظور الحضارى للفرد. وهذه الصيغة تتطلب إسلوبا جديدا فى التعامل مع عمارة المدينة العربية أوالإسلامية بحيث توفر لقيمها الحضارية الإستمرارية التراثية. وإذا كان الزمن لا يتوقف عند حد معين وهو يتحرك بمختلف المتغيرات التقنية والمعيشية فإنه لابد من موازنة ذلك بالثوابت الاجتماعية والثقافية والعقائدية التى يوفرها المنهج الإسلامى بكل الجوانب الحياتية. ويعنى ذلك ضرورة ربط المضمون المعمارى بالعقيدة الإسلامية مع ترك الحرية التشكيلية للمتغيرات التقنية والمعيشية مع الأخذ فى الإعتبار الملامح الشكلية لعمارة المكان وهى الملامح التى غرست فى وجدان المجتمع على مدى العصور التاريخية السابقة مع أن هذه الملامح قد أفرزتها بيئة المكان وحرفية البناء معا... وإذا كانت بيئة المكان لم تتغير إلا أن حرفية البناء قد تطورت وتغيرت. ولم يبقى لنا فيها إلا الناحية الرمزية... والرمزية هنا ترتبط بالشكل أكثر منها بالوظيفة

ويبقى بعد ذلك التساؤل عن كيفية توظيف هذه الرمزية وإدخالها فى العملية التصميمية.. وهل تدخل فى إطار التشكيلات السطحية ذات البعدين أو فى التشكيلات الحجمية ذات الأبعاد الثلاثة. فالتشكيلات السطحية داخلية كانت أو خارجية لا تفقد شيئا من التشكيل المعمارى للمبنى أما التشكيلات الحجمية فقد تفقد التشكيل المعمارى الكثير إذا أسئ إستعمالها.

ويسأل عن كل ذلك الثقافة المعمارية ودورها فى توعية المجتمع بكل فئاته شاملا المعماريين وأصحاب المشروعات معا. وذلك بإعتبار أن المعمار منتج إجتماعى. كما يسأل عنه أيضا العملية التعليمية ودورها فى بناء الفكر المعمارى الذى يعتمد على الإستطلاع والتحليل والنقد والإبتكار. وبدون هذين المحورين يفقد البناء المعمارى خصائصه وقيمه ففاقد الشئ لا يعطيه. من هنا كانت الضرورة لإعادة صياغة المناهج التعليمية للعمارة بحيث تسعى فى النهاية إلى ربط الأصالة بالمعاصرة وإيجاد التجانس بين المعمارى والمجتمع بإعتبار أن العمارة فى النهاية منتجا إجتماعيا قبل أن يكون منتجا فرديا. ويتم ذلك بالتوازى مع توعية المجتمع بدور المعمارى وتوعية المعمارى بدور المجتمع فى صياغة المنتج المعمارى. الأمر الذى ينطوى تحت برامج التثقيف العام, وإن كانت بعض أجهزة الثقافة والإعلام تركز كل جهودها على فنون الرياضة والرسم والموسيقى والغناء والدراما إلا أن فنون العمارة لا تزال غائبة عن برامج هذه الأجهزة إلا فى الندر القليل. مع أن العمارة هى الغلاف الفنى التى يعيش فيها الإنسان ويتعايش معها ليلا ونهارا من الداخل والخارج الأمر الذى لا يتوفر لغيرها من الفنون.

فى ضوء هذا التوجيه العام والتحليل الفكرى تصبح العمارة مسئولية المصمم الحضرى من الخارج بما يتلائم مع المقومات الحضارية والثقافية للمجتمع وبما يتواكب مع نظم البناء المعتمدة للمكان. كما تصبح العمارة مع ذلك مسئولية المصمم المعمارى من الداخل والإلتزام بمعطيات المصمم الحضرى للعمارة من الخارج بوصفه المسئول الفنى والمعين من قبل المجتمع. الأمر الذى يتطلب ربط نظم البناء بالطابع العمرانى لكل منطقة أو شارع أو حى بما فى ذلك المجالات اللونية والإتجاهات التشكيلية والمفردات المعمارية التى توفر للمعمارى حرية التعبير فى إطار الطابع العام وتحقيق الاختلاف فى نطاق الوحدة. بحيث يصبح لكل مكان مقوماته العمرانية التى ترتبط فيها الأصالة بالمعاصرة. من هذا المنطلق تتحد المسئوليات الملقاة على أجهزة التنظيم من ناحية وعلى مقررى مناهج التعليم المعمارى من ناحية أخرى بحيث تنتقل رسالتهم العلمية للطلبة من المعماريين والمعماريين الممارسين فى نفس الوقت. ومع إرتباط مسئولية أجهزة التنظيم بمسئولية المعماريين الممارسين فإن الأمر يتطلب المشاركة فيما بينهما لوضع القواعد الأساسية التى تؤكد هذه المسئولية المشتركة. ويتم ذلك من خلال أوراق عمل تعرض فى ندوات لهذا الهدف وإسلوب تطبيقه وإعتماده فى مجموعة من اللوائح والقواعد الملزمة بجميع الأطراف مع المشاركة الجماهيرية أيضا فى إتخاذ القرارات بوصفهم الشريك الفعال والمؤثر فى إتخاذ القرارات المعمارية لمبانيهم

السكنية أو الإدارية أو الخدمية. وفى هذا المجال يمكن أن تتحمل منظمة المدن العربية مسئولية الدعوة لمثل هذه الندوات وإدارتها فى كل دولة على حدة وفى إطار نظام عام يربط الفكر المعمارى والعمرانى لكل الدول العربية بحيث لا تنهى الندوات بالتوصيات فقط ولكن ببرامج العمل التطبيقى الذى تتبناه كل دولة بما يتناسق مع مقوماتها التنظيمية والحضارية والبيئية.

إن أنهار البحث لا تزال تجرى من خلال الدراسات والبحوث فى العديد من الفروع والروافد ولكنها لم تتجمع بعد لتنتهى إلى مصب واحد تستقى منه النتائج التطبيقية فى تجارب تتوائم وتتناسب مع الإنسان والمكان على مر الزمان وتخضع للمتابعة والتقويم والمراجعة والتطوير... هذا هو سر التقدم والإنطلاق... الأمر الذى لم تتضح بوادره بعد فى عمران المدينة العربية.

الأصالة والمعاصرة فى العمارة الإسلامية

للدكتور/ عبد الباقى إبراهيم

رئيس مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية

ورئيس تحرير مجلة عالم البناء

لا شك فى أن التراث المعمارى فى مكان ما ما هو إلا انعكاس للمقومات الحضارية التى يشهدها المكان على مر العصور المتعاقبة التى يمر بها. والمقومات والحضارة ما هى إلا نتيجة تفاعلات للقيم الثقافية والفكرية والاقتصادية والاجتماعية والبيئية والدينية التى يمر بها المجتمع على مر العصور وهى عوامل لها جذورها المكانية الممتدة كما أن لها علاقاتها الإقليمية التى تؤثر وتتأثر بها على مدى الزمن... تبعا لقوة وسائل الاتصال والمواصلات من ناحية وحركة الغزوات والفتوحات من ناحية أخرى. وإذا كانت العصور الإسلامية تمتد من منتصف القرن السابع حتى نهاية القرن الخامس عشر عندما توقف امتدادها الحضارى بالفتح العثمانى ثم الغزو الفرنسى والبريطانى الأمر الذى أدى إلى ربط العالم الإسلامى بالحضارة الغربية بعد ذلك حتى أصبح يتأثر بها أكثر مما يؤثر فيها كما كان الحال ومع تطور المد الحضارى الغربى انقلبت الموازين الحضارية للمجتمعات الإسلامية اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا وسياسيا الأمر الذى ظهرت آثاره فى ثقافات العديد من الشعوب الإسلامية خاصة فى عاداتها وتقاليدها كما فى أزيائها وفنونها وبالتالى فى عماراتها الأمر الذى تعانى منه المدينة الإسلامية المعاصرة. لقد فرضت الحضارات الواردة أنماطها المعمارية على الامتدادات العمرانية للمدن الإسلامية والعربية منها بصفة خاصة وقد انتقل الفكر المعمارى الغربى إلى المدينة العربية بطرق مباشرة وذلك من خلال أعمال المعماريين الغربيين أو بتوجيهاتهم أو بطرق غير مباشرة وذلك من خلال المعماريين العرب المبعثين إلى الخارج أو من خلال سيل الإصدارات المعمارية من الكتب والمجلات الوافدة والتى غزت الساحة المعمارية الإسلامية العربية منها وذلك فى غياب البديل المحلى من الإصدارات المعمارية وهو الأمر الذى بدأنا نشعر بخطورته على أجيال المعماريين العرب فكان موقفنا من ذلك متمثلا فى مؤلفاتنا التالية:-

الكتاب الأول بعنوان " المنظور التاريخى لعمارة المشرق العربى " وهو يعرض العمارة العربية كإفراز حضارى على مر العصور التى مرت بها المنطقة منذ فجر التاريخ عبر العصور الإسلامية حتى التاريخ المعاصر موضحا أثر العلاقات التبادلية بين دولها – سياسيا وثقافيا واقتصاديا واجتماعيا – على العمارة المحلية لكل دولة من دول المنطقة على مر العصور المختلفة... بما فيها العصور الإسلامية التى أفرزت ما يطلق عليه المؤرخون العمارة الإسلامية بتشكيلاتها الفنية وقيمتها الجمالية وهى العمارة التى اكتسبت خصائص حضارية

ارتبطت بوجدان المجتمع الإسلامى وأصبحت النبع الفياض للقيم المعمارية بما فيها من ثوابت امتدت على مر العصور ومتغيرات تتغير بتغير الزمان والمكان.

والكتاب هنا يعتبر صيغة جديدة لتاريخ العمارة العربية الذى يتبع الخط الحضارى العربى بدءا من العمارة الفرعونية أو الآشورية ثم القبطية والإسلامية بكافة عصورها ثم العمارة الوافدة والعمارة المعاصرة كما يتم تناولها حاليا... وليست كما يعرضها علم تاريخ العمارة الغربية الذى يتبع الخط الحضارى الغربى بدءا من العمارة اليونانية ثم الرومانية ثم عمارة العصور الوسطى فى أوروبا ثم عمارة عصر النهضة ثم الثورة الصناعية ثم العمارة المعاصرة وهى الصبغة التى يتبعها المعمارى العربى حاليا خلال بنائه التعليمى والفكرى لذلك كان لابد من وقفة لتوجيه تاريخ العمارة العربية الوجهة الصحيحة على طول الخط الحضارى العربى. من هذا المنطلق يمكن الربط بين الافرازات المعمارية على مر التاريخ العربى من الماضى حتى الوقت الحاضر حتى يمكن استشراف مقوماتها فى المستقبل. لقد كان لدور التوثيق المعمارى خاصة بالنسبة للعمارة الإسلامية على مر عصورها ثم تحليلها شكليا وعقائديا أثره فى هذا العرض التاريخى الذى يقدمه الكتاب بصورة يمكن استيعابها بسهولة ويسر من قبل الأجيال المعمارية الناشئة.

من خلال المنظور التاريخى لعمارة المشرق العربى يتضح أن العمارة التى أفرزتها العصور الإسلامية كانت هى الوحيدة التى استقرت فى وجدان الإنسان العربى المسلم وأصبحت العقيدة هى الوجه الأساسى لمكوناتها الداخلية التى انعكست على تشكيلاتها الخارجية فكانت انعكاسا واضحا للمقومات العقائدية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية للمجتمع. تختلف فى تفاصيلها من مكان لآخر ومن زمن لآخر وتوحد بينها وحدة الدين والعقيدة، ارتقت فيها حرفة البناء واستجابت لمتطلبات المستعمل لها وحققت رغباته المعيشية، ظهرت فيها التقنية المتوافقة لعلم البناء وواجهت بعناصرها الظروف المناخية والبيئية التى تختلف باختلاف المكان والزمان حتى أصبحت عمارة العصور الإسلامية مرجعا للابتكار والاقتباس. وان كانت العمارة الغربية كثيرا ما يطغى فيها الشكل على المضمون إلا أن عمارة العصور الإسلامية هى إسلامية فى مضمونها وتتشكل بالبيئة التى بنيت فيها وهى من الداخل تتفق مع القيم والرغبات الفردية للمستعمل أما من الخارج فهى تتفق مع القيم والرغبات العامة للمجتمع الذى يتحرك خارجها ويتعايش معها ولقد ظهرت العمارة الإسلامية غنية بمكملاتها التشكيلية والجمالية التى تعتمد على الوحدة الزخرفية والعلاقات الهندسية النابعة من الأسس البنائية والتقنية الحرفية والمواد الإنشائية. ويعنى ذلك أن العمارة الإسلامية بمضمونها العقائدى وتشكيلاتها البنائية تضم فى طياتها النظرية المعمارية العالمية. من هذا المنطلق كان الإقدام على توثيق هذا المفهوم فى كتاب آخر كتبته تحت عنوان " المنظور الإسلامى للنظرية المعمارية ".

يعرض "كتاب المنظور الإسلامى للنظرية المعمارية " لتطور النظرية المعمارية الغربية التى تبلورت فى ضوء التغيرات الثقافية والاقتصادية والاجتماعية التى مرت بها الحضارة الغربية... وإذا كان للغرب نظرياته المعمارية النابعة من واقعه الحضارى فلا أقل من أن يكون للعرب والمسلمين نظريتهم المعمارية النابعة من واقعهم الحضارى أيضا. وباستعراض النظرية المعمارية الغربية بحثا عن مدى ملائمتها وتناسبها مع الواقع العربى الإسلامى ظهر مدى التناقض الكامل والتضارب الواضح بين أبعاد النظرية الغربية وتطبيقها على الواقع العربى الإسلامى. من هنا كان لابد من البحث عن النظرية المعمارية الإسلامية من خلال الواقع الحضارى للمجتمعات الإسلامية من تراثه المعمارى ومن منهجه القرآنى... من أقوال الرسول الكريم.. من أقوال السلف الصالح... من القيم التى تبنى الإنسان وهى القادرة على بناء العمران... من خلال منهج الوسطية الإسلامية فى الاتفاق، فى الزخرف، فى المتطلبات المعيشية التى لا تعتبر فيها أولا إسراف فى الخصوصية الاجتماعية والفردية فى تكافل المجتمع فى تكامله، فى ترابطه، فى حقوق الجوار, فى حسن الأداء وإتقان العمل. وكتاب المنظور الإسلامى للنظرية المعمارية لهذا المنهج يضع للعمارة الإسلامية نظريتها المعاصرة المستمدة من أسس العقيدة الإسلامية من ناحية ومن معطيات التراث المعمارى والتقدم العلمى من ناحية أخرى وهكذا تثبت فى النظرية الجديدة العلاقة بين الأصالة والمعاصرة كما يثبت فيها إسلوب بناء الشخصية الحضارية للمدينة العربية الإسلامية بإنسانها المعاصر وعمرانها معا على مدى مراحل نموها.

ولم يقف مضمون كتاب المنظور الإسلامى للنظرية المعمارية عند حد وضع النظرية ولكن لابد من خلال البناء الفكرى لطالب العمارة العربية فكان الكتاب الثالث الذى كتبته تحت عنوان " الفكر المعمارى " منتهجا اسلوب بناء الطالب عقائديا وفكريا وفنيا من بداية الطريق على طول العملية التعليمية التى تسعى إلى ترسيخ القيم الإسلامية عند الطالب وهو يتعامل مع المكونات المختلفة للعمارة فنيا وتشكيليا وهندسيا واجتماعيا واقتصاديا معا. ويظهر ذلك من خلال مسلسل التمارين التطبيقية على مدى العملية التعليمية فى السنوات الدراسية مع استخدام أحدث أساليب التقنية المعاصرة وذلك من منطلق النهج الإسلامى الذى يسعى إلى التقدم والابتكار والارتقاء فى إطار المقومات الراسخة والتى تهدف إلى بناء الإنسان السوى المتوازن. والعرض للتراث المعمارى فى هذه العملية توثيقا تحليلا واستنباطا دوره فى ترسيخ التشكيلات المعمارية الإسلامية فى المخزون العقلى والفكرى للطالب حتى يمكن استرجاعها بتلقائية ويسر عندما يمارس العملية التصميمية المعاصرة وحتى يقلل من تأثير المخزون العقلى للعمارة الغربية الذى يستوعبه الطالب العربى من خلال سيل الكتب والمجلات التى تنقل إليه الأنماط المعمارية الغربية.

وهكذا تحاول الكتب السابقة وغيرها مما صدر عن مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية سد الفراغ فى التأليف المعمارى فى الوطن العربى وقد تم استكمالها بمجموعة أخرى من الكتب يعرض بعضها للمعماريين العرب مثل حسن فتحى وغيره كما يعرض غيرها للقيم

الحضارية فى بناء المدينة الإسلامية وأخيرا وليس آخرا يصدر كتاب بعنوان " المنظور الإسلامى للتنمية العمرانية " (تحت الطبع) أعرض فيه للنظرية الغربية فى التخطيط العمرانى ومدى ملائمتها للمدينة العربية ثم يقدم محاولة أخرى للبحث عن النظرية الإسلامية التى توجه عمليات التنمية العمرانية المستمرة تخطيطيا وتنظيميا وإداريا وذلك من خلال المنهج الإسلامى الذى يسعى إلى بناء المجتمع عقائديا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا يتم فيها بناء العمران مع بنا الإنسان باسلوب متكامل.

ويأتى بعد السلسلة السابقة من الكتب مجلدا هاما بعنوان " أسس التصميم المعمارى والتخطيط الحضرى فى حالة القاهرة الإسلامية " وهو العمل المشترك مع الزميل الأستاذ الدكتور / صالح لمعى الذى انتهجت فيه مبدأ البحث عن القيم التصميمية من خلال القيم التشكيلية والمضامين العقائدية للأنماط المعمارية المختلفة على مر العصور الإسلامية وذلك من خلال العمليات الثلاثية التى يعالجها هذا المجلد وهى التوثيق والتحليل والاستنباط وتحديد ما هو ثابت كمضمون عقائدى أو حضارى وما هو متغير كتقنية البناء والمتطلبات الاقتصادية والاجتماعية. وينتهى هذا الجزء من المجلد إلى وضع أسس التصميم المعمارى للأنماط المعمارية المختلفة من مبانى سكنية ومساجد ومدارس وغيرها من المبانى العامة. ويعالج الجزء الثانى من المجلد أسس التخطيط الحضرى للمدينة الإسلامية المعاصرة المستمدة من الأنماط التخطيطية للمدينة القديمة التى تتضح فيها العلاقات الإنسانية ووحدة الجوار ومكانة المسجد فى إطار النسيج العمرانى والاجتماعى للمدينة. فقد تم رفع وتحليل عددا من المناطق التاريخية فى القاهرة الإسلامية بهدف استنباط هذه الأسس التخطيطية ويعتبر هذا العمل الكبير مرجعا هاما للدارسين فى علوم العمران وان كان يقتصر على عمران القاهرة من العواصم والمدن الإسلامية الأمر الذى تعمل له منظمة العواصم والمدن الإسلامية التى أعد هذا العمل لصالحها. وكان لمعالى الدكتور المعمارى / عبد القادر كوشك أمين المنظمة الفضل فى دفع هذا العمل ليخرج بهذه الصورة اللائقة يتبعها النص الانجليزى والفرنسى حتى تعم الفائدة منه وتطبيق منهجه على العواصم والمدن فى كل أحياء العالم الإسلامى.

ولم تتوقف أعمال التأليف والنشر عند هذا الحد بل يقوم المؤلف بإصدار مجلة معمارية شهرية باسم " عالم البناء " يدعو فيها إلى تأصيل القيم الحضارية فى بناء العمارة والمجلة فى تحريرها وإخراجها تسعى إلى مخاطبة العامة والخاصة معا. بإعتبار أن بناء الفكر المعمارى لا يجب أن يكون قاصرا على طالب العمارة فقط بل أيضا على المتعامل معها والمستفيد منها من أفراد المجتمع باعتبار العمارة إنتاجا اجتماعيا قبل أن يكون إنتاجا فرديا كغيرها من الفنون الأخرى المتمثلة فى الرسم أو النحت أو الموسيقى التى تعبر عما فى وجدان الفنان الفرد وهى فنون تنتقل وتظهر وتختفى كما أنها فنون يسعى إليها الفرد إذا أراد ولا تسعى إلى الفرد بخلاف العمارة فهى

ثابتة لا تتحرك يعيش فيها الفرد والمجتمع معا بلا خيار أو اختيار. من هنا كانت العمارة هى الأكثر تأثيرا على المجتمع والأكثر تأثرا به. ومع ذلك لا تلقى العناية والرعاية التى تلقاها الفنون الأخرى.

كما لم يتوقف الإنتاج الفكرى عند حد التأليف والنشر والإعلام ولكن تعداه إلى عالم الممارسة العملية فى وضع التصميمات المعمارية والتخطيطية التى تنقل النظرية المجردة إلى الواقع الملموس فى العديد من المشروعات المعمارية والعمرانية فى العديد من المدن العربية. والتى يمكن عرضها بعد هذه المحاضرة.

وهكذا لا يتوقف العقل عند التعامل مع العمارة الإسلامية كتراث تاريخى يخضع للتوثيق والتحليل ولكن لابد من الامتداد به عبر الأزمان لربطه بالحاضر والمستقبل فى صيغة المعاصرة لكل زمان ومكان.

إننا بذلك نشارك فى إثراء الحضارة الإسلامية المعاصرة امتدادا لمعطيات تراثها المعمارى.